المحاضرة02: الأدب في القيروان

أولا.فتح القيروان:

بعد غزوات عدّة تمكّن الجيش الإسلامي من فتح إفريقية ونشر الإسلام فيها، واستقرار المسلمين فيها، لاسيّما في سنة 50هـ أين بدأت إفريقية الإسلامية عهدا جديدا مع "عقبة بن نافع" المتمرّس بشؤون إفريقية منذ حداثة سنّه، فقد لاحظ ارتداد البربر ونقضهم العهود، وعَلمَ أنّ السّبيل الوحيد للمحافظة على إفريقية، ونشر الإسلام بين أهلها هو إنشاء مدينة تكون محطّ رحال المسلمين، ومنها تنطلق جيوشهم، فأسّس مدينة القيروان وبنى جامعها، وافتتح كثيرا من البلدان، وعمل على نشر الإسلام بين البربر وشرّد من بقي على الكفر.

وقد وُصفت القيروان في كتب الجغرافيين والمؤرخين بأوصاف جليلة تنبئ بعظمتها وتدلّ على فضلها، من ذلك قول الإدريسي: «ومدينة القيروان أمّ أمصار، وقاعدة أقطار، وكانت أعظم مدن المغرب قطرا، وأكثرها بشرا، وأيسرها أموالا، وأوسعها أحوالا، وأتقنها بناء، وأنفسها هما... والغالب على فضلائها التمسك بالخير والوفاء بالعهد والتّخلي عن الشّبهات، واجتناب المحارم والتفنن في محاسن العلم..»[1]، واحتلت مدينة القيروان مكانة سامية في نفوس المسلمين، وقصدها الناس من الآفاق، وسرعان ما أضحت عاصمة المغرب السّياسية والعلميّة والدّينيّة، وكثر فيها الفقهاء والمحدّثون والشّعراء والعبّاد.

[1]-الحسين بن محمد شواط، القيروان من الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، ط1، 1411هـ، ص47.

ثانيا. الأدب في القيروان:

عرف الأدب في الفترات الأولى الّتي أعقبت الفتح في بلاد إفريقية نوعا من الضّعف، فلم ينبغ فيها من أبناء البلاد من يكون لهم تبرّز في البلاغة العربيّة لقرب العهد عليهم بدخول الفاتحين لأقطارهم، وامتزاجهم بهم، ولذلك لم يتسنّ لأبناء إفريقية الظّهور في الأدب إلاّ بعد مضي جيل أو جيلين ريثما تلقّن أبناء البلاد اللّغة العربية ولاكتها ألسنتهم وتعوّدت عقولهم التّفكر فيها، فنطقوا بالمنثور والمنظوم من الكلام الفصيح وكانوا من السباقين في ميادينه.

وتمّ الاستيلاء الإسلام على البلاد على يد الصّحابة وتابعيهم الّذين نصبوا أعلام الشّريعة السمحة والمدنية الراقية في أطراف العالم، فكان لأمراء الجيوش فصاحة غريزية في ألسنتهم العربية توارثوها عن الآباء والأجداد الّذين عاشوا في الجاهلية ولم يزدها الإسلام وحفظ القرآن ورواية الحديث إلاّ بلاغة وحكمة.

1. الخطابة:

احتاج المسلمون إلى الخطابة لاستنهاض همم الجيوش وإرهاب الأعداء، وفي هذا المقام نذكر خطبة قالها القائد "موسى بن نصير" (ت 98هـ)بجامع القيروان عند دخوله إلى إفريقية:

«أيّها النّاس! إنّما كان قبلي على إفريقية أحد رجلين: مسالم يحب العافية ويرضى بالدون من العطية، ويكره أن يُكلّم، ويحب أن يسلم، أو رجل قليل المعرفة راض بالهوانى، وليس أخو الحرب إلاّ من اكتحل السّهر، وأحسن النّظر، وخاض الغمر ..»[2].

2.الوصايا:

[2]-حسين حسني عبد الوهاب، مجمل تاريخ الأدب التونسي؛ من فجر الفتح لإفريقية إلى العصر الحاضر، مكتبة المنار، تونس، 1968، ص26

انتشرت الوصايا في مدينة القيروان في هذه الفترة من ذلك نذكر **وصية "عقبة بن نافع"** لأبنائه بالقيروان لما عزم على التّوغل في المغرب قال لهم: «يا بَنِي! إنّي بِعْتُ نفسي من الله ولا أدري ما يقضى عليّ في سفري، يا بني إنّي أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيّعوها: "املأوا صدوركم من كتاب الله فإنّه دليل على الله، وخذوا من كلام العرب ما تهتدي به ألسنتكم ويدلكم على مكارم الأخلاق، وأوصيكم ألاّ تداينوا ولو لبستم العباء، فإنّ الدّيْن ذلّ بالنّهار وهمّ باللّيل فدعوه تسلم لكم أقداركم، ولا تأخذوا دينا إلاّ من أهل الورع فإنّه أسلم لكم، ولا تقبلوا العلم من المغرورين فيفرّقوا بينكم وبين الله، ومن احتاط سلم ونجا»[3].

-التّرسل:

كتب أدباء القيروان الرّسائل بنوعيها الدّيوانية المتبادلة بين الملوك والسّلاطين، والإخوانية المتبادلة بين الأصدقاء والأقارب، ومن الرّسائل البارزة نذكر رسالة لإمام علماء القيروان "ابن أبي زيد" (ت386هـ) إلى المربي "محرز بن خلف التونسي" يقول في مقدمتها: «أمّا بعد، أعاننا الله وإيّاك على رعاية ودائعه، وحفظ ما أودعنا من شرائعه، فإنّك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الدّيانة ممّا تنطق به الألسنة، وتعتقده القلوب، وتعمله الجوارح، وشيء من الآداب منها، وجملٍ من أصول الفقه وفنونه على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله...»[4].

.الشّعر:

برز العديد من شعراء القيروان من بينهم "عبد الرحمن بن زياد" (ت 161هـ)، ومن القصائد الّتي كتبها إلى أهله لما كان بالمشرق[5]:

[3]- حسين حسني عبد الوهاب، مجمل تاريخ الأدب التونسي؛ من فجر الفتح لإفريقية إلى العصر الحاضر ص25
[4]--المرجع نفسه، ص107.
[5]- حسين حسني عبد الوهاب، مجمل تاريخ الأدب التونسي؛ من فجر الفتح لإفريقية إلى العصر الحاضر ص32

ذكرتُ القيروان فهاج شوقي وأين القيروانُ من العـراق

مسيـــرة أشهر للـــعيرِ نصًّا ولِلْخيل المضمّرة الـعِتــاق

فبــلّغ أنعما وبــني أبـــــيه ومن يُرجى لنا وله التّلاقي

بأنّ الله قـــد خـلّى سبيلي وجدٌ بنا المسير إلــى مُزاق[6]

كما كتب الشّاعر والخطيب "أبو الوليد عبد الملك المهري القيرواني" (ت255هـ) **مرثية** في الإمام سحنون يقول فيها:

هناك برّزت يا سحنون منفردا كسابـــق الخـيل لما بـــان فانـــقطعا

فاذهب فقيدا حباك الله جنته واحصد من الخير ما قد كنت مزدرعا[7]

كما شاع في قصائد شعراء القيروان **النصح والموعظة**، من ذلك قصيدة للشاعر "أحمد الصّواف (ت291هـ) أحد أبناء القيروان يقول فيها:

ولما فجا عمري ثمانين حجة وأيقنتُ أنّي قد قربـــت من المدى

تركتُ تكاليف الحياة لأهـلها وجانبتها طوعا فـــجانبني الردى

رأيتُ حليم القوم فيهم مقدما ومن نال علما نال جاها وسؤددا

أراني بحمد الله في المال زاهدا وفي شرف الدّنيا وفي العـــزّ أزهدا[8]

[6]-المزاق: هو اسم لإفريقية قديما، وهو تعريب لاسم الجهة الوسطى من البلاد التونسية عند الروم البيزنطيين، الّذين كانوا يطلقون عليها اسم "بوزاكيا".

[7]- حسين حسني عبد الوهاب، مجمل تاريخ الأدب التونسي؛ من فجر الفتح لإفريقية إلى العصر الحاضر ص60

[8]- حسين حسني عبد الوهاب، مجمل تاريخ الأدب التونسي؛ من فجر الفتح لإفريقية إلى العصر الحاضر ص70

وله في **الصّبر**:

سألبس للصّبر ثوبا جميلا وأفتل للصبر حبلا طويلا

واصبر بالرّغم لا بالرضى أخلّص نفسي قليلا قليلا[9]

كما برز **الفخر** عند شعراء القيروان كما جاء في قصيدة للشّاعر "أبو القاسم الفِزّازي" (توفي في حدود 345هـ) يقول فيها:

فهل للقيروان وساكنيها عديلُ حين يفتخر الفخورُ

بلاد حشوها علم وحلم وإسلام ومعروف وخيرُ

عراقُ الشّام بغداد وهذي عراق الغرب بينهما كثيرُ

ولستُ أقيسُ بغدادا إليها وكيف تُقاس بالسّنة الشّهورُ[10]

وبلغ الأدب ذروة تقدّمه وتطوره في مدينة القيروان إبّان العصر الصّنهاجي (362هـ-450هـ) نتيجة إقبال الأمراء على العلم والأدب، وأخذهم بأيدي أهله رغبة منهم في بثّ المعارف تقديرا لأصحاب الفضائل، فبرز الأدب بنثره ونظمه في هذا العصر في حالة من التّفنن والرقة فيه الاختراع الجيّد وتوليد المعاني الرّقيقة، ووُضع فنّ نقد الشّعر وسبره كما في مؤلف "العمدة" لابن رشيق القيرواني.

كما كثر استعمال البديع وتُركت الألفاظ الوحشيّة من الكلام، جريا مع تيار الحضارة حينئذ فأثّر ذلك في أساليب الإنشاء وتراكيب الشّعر، فكان أدباء هذا العصر أوسع مادّة، وأرحب أفقا وأنبل غرضا، وبذلك اكتسب الأدب هيئة جديدة لم يعرفها من قبل، فشاع المنظوم والمنثور وتعدّدت الأنواع والأغراض والأساليب.

[9]- حسين حسني عبد الوهاب، مجمل تاريخ الأدب التونسي؛ من فجر الفتح لإفريقية إلى العصر الحاضر ص71
[10]- حسين حسني عبد الوهاب، مجمل تاريخ الأدب التونسي؛ من فجر الفتح لإفريقية إلى العصر الحاضر، ص87.

أعلام القيروان:

من أعلام القيروان "ابن رشيق القيرواني، ابن شرف، أسد بن الفرات، المعز بن باديس الصنهاجي الّذي يعدّ رمزا لما بلغته القيروان من حضارة في عهد الصنهاجيين، عبد الله بن الأغلب الّذي جعل من القيروان اسما ملأ الدنيا، أمّا "عقبة بن نافع" فيظلّ الفاتح والمؤسّس للمدينة، إسماعيل بن عبيد المشهور بلقب "تاجر الله" وهو من بنى المسجد المعروف بمسجد الزيتونة، ومنهم "عبد الرحمن التنوخي"، عبد الكريم النهشلي عالم اللغة، وكان أيضا من أهل الأدب "أبو إسحاق الحصري القيرواني" صاحب "زهر الآداب".

أدّت مدينة القيروان دورا أساسيا في القرون الإسلامية الأولى؛ حيث إنّها كانت العاصمة السّياسية للمغرب الإسلامي في العهدين الأموي والعباسي.